قصة الجريدة

تأليف

الدكتور ابراهيم عبده

الطبعة الثانية

أبريل ١٩٧٣

الناشر

مؤسسة سجل العرب

قصة الجريدة

تأليف

الدكتور ابراهيم عبده

الطبعة الثانية
أبريل ١٩٧٣

الناشر
مؤسسة سجل العرب

الخبر

كان الدكتورُ إسماعيلُ يجلسُ بمكتبه حيثُ يسكنُ فى إحدى الدُّورِ الكبيرةِ المُطلّةِ على حدائقِ الأورمانِ بالقُربِ من جامعةِ القاهرةِ بالجيزةِ ، وذلكَ ليُعدَّ مُحاضرتَه التى سيُلقيها بعدَ ظُهرِ ذلكَ اليوم على تلاميذِه فى معهدِ الصّحافةِ المُلحقِ بكلّيّةِ الآدابِ .

وأقبلَ ولداه كمالٌ وعصامٌ يرْجُوانِه أن يأذنَ لهما باللّعِبِ فى الشّارعِ أمامَ الدّارِ التى يسكُنانِ بها ، ولكنَّ الدكتور إسماعيل لم يُوافقْ على رغبةِ ولديْه ، إذْ إنَّ اللعبَ فى الشارعِ يُعرِّضُهُما للخطرِ ، فقد تصْدُمُ أحدَهما أو كليْهما سيارةٌ عابرةٌ لا سَمَحَ اللهُ ، علاوةً على ما يَعلقُ بجِسْمَيْهما وملابِسهما من غبارِ الشارعِ وأتْربتِهِ ، بلْ أرشدَهما إلى أن يقضيا بعْضَ الوقتِ فى حديقةِ الأورمانِ حيثُ يُفيدانِ من الشّمسِ المُشْرِقةِ ويُمتّعانِ العينَ والنّفسَ بالنظرِ إلى الأشجارِ المُورِقةِ ، والورودِ المزْهِرةِ ، والأرضِ الخضراءِ المَكسُوّةِ بالحشائشِ الجميلةِ التى هذّبَها البُسْتانىُّ حتى بدَتْ فى تنسيقٍ طريفٍ .

فقال عصام :

— شكراً لكَ على ما أشرتَ به يا والدي ففيه خيرٌ وبركة ، وإنه ليُسعدُنا أن نكونَ فى صُحبتِكَ إلى تلكَ الحديقةِ الجميلةِ ، ليكملَ بذلكَ سرورُنا .

واعتذرَ الوالدُ بأنه مشغولٌ بإعدادِ درسِه لتلاميذهِ فى معهدِ الصّحافةِ . وهو أولُ درسٍ يُلقيه عن «قِصّةِ الجريدةِ» .

واسترعت كلمةُ « قِصّة » انتباهَ عصامٍ فسألَ أباهُ عمّا يقصدُهُ « بقصةِ الجريدة » ؟

فقال الوالد :

— أنتَ ترانا نقرأُ فى الصّباحِ جريدتَى الأهرامِ أو الأخبارِ أو غيرهما ، وأشاهدُك فى بعضِ الأحيانِ تُقلّبُ صفحاتِها ، وتتفرّجُ على صُوَرِها ، وتقرأُ ما تحتَ هذه الصّوَرِ من سُطورٍ وعِبارات .

فهذه الجريدةُ التى تراها وتُقلّبُها وتقرأُ فيها أحياناً ، لها قِصّةٌ يا بُنَىّ ، وهى من أمتعِ القَصَصِ المُتّصلةِ بحياةِ الناس .

— وكيفَ كانَ ذلك يا أبي ؟

— إن الجرائدَ التى تصدُرُ اليومَ ، لم تكنْ هكذا عندالتفكيرِ فى إخراجِها واشتغالِ بعضِ العُقلاءِ بنشرِها ، وهىَ لم تظهرْ فى عالَمِ التاريخِ إلا مُنذُ بضعِ مئاتٍ من السّنين .

— وتطلّعَ كمالٌ — وهو الابنُ الأكبرُ للدكتور إسماعيل — إلى والدِه متسائلاً :

— كيف بدأتِ الجريدةُ عندما فكّر فيها الإنسان العاقل ؟

— الأصلُ فى الجريدةِ — يا بُنىّ — أنها مَطبوعٌ فيه مجموعةٌ مِنَ الأخبارِ القصيرةِ ، ولذا لم يعرفْ أصحابُ الجرائدِ أولَ العهدِ بها الصُّوَرَ أو الصّفحاتِ الكبيرةَ التى ترَوْنها الآنَ ، ولم يَطبَعُوا فيها كلَّ هذه المَوادّ التى يقرؤُها الناسُ اليومْ ، بل كانَ الغرضُ الأولُ من الجريدةِ نشرَ أخبارٍ مُوجزةٍ ، بعدَ أنْ كانَ رُواةُ الأخبارِ يَبيعُونها مَخطوطةً لِمنْ يَستطيعُ شراءَها ، ومنْ يَهمّه أمرُها .

وهنا سأل كمال :

— وما الأخبارُ المخطوطةُ ؟

— الأخبارُ المخطوطةُ يابنىَّ هى الأخبارُ التى كانَ يكتُبها بعضُ الناسِ بخطِّ يدِهم ، ويبيعُونها لِمَنْ يهتمُّ بها من الأمراءِ والحُكّامِ ، وكانتْ هذه الطريقةُ التى اتُّبِعَتْ مُنذُ خمسمائةِ سنة أولَ تجديدٍ فى إذاعةِ الأخبارِ .

— وما الذى تعنيه يا والدى العزيز بإذاعةِ الأخبار ؟

واعتدلَ الدكتورُ إسماعيلُ فى جلستِه ، والابتسامةُ ترتسمُ على شفتَيْه ، والغِبْطةُ تبدو فى وجهِهِ لنجابةِ ولدَيْه ، فقد كانتْ أسئلةُ كمالٍ وعصامٍ هى موضوعَ درسِ ذلك اليوم لتلاميذِه الكبار فى معهدِ الصحافةِ ، ولم يَلبثْ أن واصلَ حديثَه عن (قصةِ الخبر) قائلاً :

— أقصدُ بإذاعةِ الخبرِ ، تعريفَ الناسِ به . ونقلَه إليهم ، وروايتَه لهم . وطرقُ إذاعةِ الخبر قديمةٌ وُجدَتْ مع وجودِ البشريّةِ نفسِها ، فكان أجدادُنا المصريونَ القدماءُ يُذيعون أخبارَهم مكتوبةً على الأحجارِ أو أوراقِ البَرْدى ، ويضعونَها فى مداخِلِ معابِدِهم .

كان المنادِى أولَ من أذاعَ الأخبار

— وما أوراقُ البردى ؟

— أوراقُ البردى ، نوعٌ من ورقِ النّباتِ اشتهرتْ به مصْرُ أيامَ الفراعنةِ ، وكان المصريُّونَ القدماءُ يُجفِّفونَه ويُعِدّونَه ليَصْلُحَ للكتابةِ عليه ، وبه كتبوا أخبارَهم ، ورسائلَهم التى كان يحملُها عمالُ البريدِ ، ويذهبونَ بها إلى خارجِ مصر : إلى سُوريا والعِراق ، وإلى الجنوبِ فى السُّودانِ وسواحلِ افريقية ، حيث كانت — ولازالت — تربِطُنا بتلك البلادِ مُنذُ أربعةِ آلافِ سنة ، روابطُ الصّداقةِ والموَدّةِ ، وكانت تلكَ البلادُ هى البلادُ المتحضرةُ دونَ غيرها ، البلادُ التى تعرفُ المدنيةَ ، وتعرفُ القراءةَ والكتابةَ قبلَ بلادِ العالَمِ أجمعِ .

ثم أخذت يا ولدىَ العزيزين إذاعةُ الأخبارِ تتطوّرُ ، فاختص بها واحدٌ أو أكثر من كلِّ مدينةٍ وقرية ، يمضى فى شوارعِها وحاراتِها وأزقّتِها يُعلنُ عمّنْ ماتَ ، أو يُنادِى عن تَوْليةِ حاكم ؛ أو يُذيعُ خبرَ ضياعِ شاةٍ من أصحابِها .

وتطورتْ إذاعةُ الأخبارِ مرّةً أخرى ، فلم يَقتصِرِ الأمرُ على مُناداةِ (المُنادى) بالأخبارِ ناطقاً بلسانِه فقط ، بل أخذَ يحملُ معه

(طَبْلَةً) يدُقُّ عليها ليجذِبَ الناسَ إليه . فإذا تجمّعوا حوْله ؛ أخذَ يُعلنُ الأخبارَ عليهم .

وقد اتُّبِعَتْ طريقةُ « الطبلةِ » فى البلادِ الشرقيةِ والغربيةِ على السّواء ؛ ولم تقتصرْ بلادُ أوربا على « الطبلة » وحدَها ؛ وإنما جعل المنادون هناك يستعملونها أو يستعملونَ الأجراس بدلاً منها ؛ يهزّونها بأيديهم فيسترعى رنينُها انتباهَ الناسِ الذين يتجمّعون حولَ المُنادى ليستمعوا إلى أخبارِه التى يُلقيها مُشافهةً ، أو يقرؤها عليهم من ورقةٍ فى يدِه ، فإذا فرغَ من ذلكَ ، علّقَ الورقةَ على جدارٍ فى أحدِ الشوارعِ الهامة .

وبادر كمالٌ والدَه بسؤالٍ يدُلُّ على قوة الملاحظة فقال :

— ولِمَ لمْ يقتصروا فى إذاعةِ الأخبارِ على تعليقِ الورقة بعد الضّربِ على الطّبلةِ أو الدّقِّ بالناقوس ؟

— لم يكنْ تعليقُ الأوراقِ على الجدرانِ يا بنىّ قاعدةً عامة ، إذ لم يكنْ المُنادى يُعلقُ إلا الأوراقَ التى تخصُّ شؤونَ الحكومةِ فى ذلكَ الوقت ، وكان لابُدَّ له من أنْ يقرأ الورقةَ أولاً لأنّ مُعظمَ الناسِ فى ذلكَ الزمانِ كانوا أميّين لايقرءون ولايكتبُون.

فلما جاء الإسلام بدعوته وحضارته ، وشيدت الجوامع والمساجد ، صارت الأحداث الهامة والأخبار الخطيرة تعلق عند أبوابها ، وكذلك استعمل الحكام المسلمون مآذن الجوامع والمساجد لإذاعة الأخبار الحكومية ، فكان هؤلاء الناس يتجمعون فى بيوت الله ، فيصلون ، ثم يستمعون بعد ذلك إلى الأخبار الرسمية تقال لهم أو تقرأ عليهم .

ولما عرف الورق ، وأصبحت الكتابة على الأوراق وسيلة هامة لنشر الأخبار ، كان الخطاطون يكتبونها ، ويعلقونها عند أبواب المساجد والجوامع ، وبعد ذلك اخترعت المطبعة ، فكانت هذه الأخبار تطبع على أوراق كثيرة ، وتعلق فى الشوارع والأزقة والحارات .

وبظهور المطبعة ، تعطلت وظيفة المنادى وركدت صناعة المناداة بالأخبار فى الأسواق وغيرها ، لأن الأخبار كانت تطبع وتوزع باليد أو تلصق على الحوائط .

وسأل الطفل عصام والده عما كان يستفيده أولئك الذين يذيعون الأخبار ؟

فقال الدكتور إسماعيل مجيباً طفله الحبيب :

— كان المنادى يتقاضى مكافأة ممن يكلفه المناداة على أى شىء ، وكانت تلك المكافأة تتضاعف إن تمت مهمة المنادى بالتوفيق والنجاح ، كما كان الذين ينسخون الأخبار ويبيعونها للعظماء ، يتقاضون عليها أجراً كريماً من هؤلاء العظماء ، إذ كان هؤلاء الذين يبيعون الأخبار ، يتحملون كثيراً من المشاق والمتاعب ، ويحتاجون إلى مصادر تمدهم بأخبار الناس . وأصحاب هذه المصادر لابد من استهوائهم بدفع أثمان أخبارهم أو تقديم هدايا غالية لبعضهم تشجيعاً لهم على نقل هذه الأخبار ، والبحث عنها وجمعها لطلابها من أصحاب هذه الصناعة .

وفى أوروبا صاروا يأخذون أخبارهم من العائدين من الخارج ، وبذلك كانت الأخبار المخطوطة أو المنسوخة تضم أنباء من الداخل والخارج على السواء .

* * *

كان لصقُ الأوراقِ على الحوائطِ من وسائلِ نشرِ الأخبار

وما إن وصَل الدكتور إسماعيلُ بحديثه إلى هذا الحدِّ . حتى كان موعدُ إلقاءِ محاضرتهِ على طلاَّبهِ فى معهدِ الصَّحافةِ قد أزِفَ فاضطرَّ إلى تَرْكِ ولدَيْهِ مُودعاً إلى لقاءٍ آخر ، وأسرع إلى الجامعةِ . وسُرَّ الطفلانِ بحديث والدهما ، ولم يكن أحدٌ أسعدَ منهما بما سمعاه ولا أشوقَ منهما إلى مزيدٍ من قِصَّةِ الجريدة التى تخصَّصَ فيها والدُهما ، وعُرف بها فى الأوساطِ العلمية .

* * *

نشأة الجريدة

كان الدكتور إسماعيلُ من أكثر المواطنين إيمانًا بعملِهِ . وحُبًّا لمهنةِ التدريسِ في الجامعةِ . وكان تخصُّصُه في علوم الصّحافةِ . شُغْلُه الشاغِل في حياتِه الخاصَّةِ أو العامّةِ : يُؤلِّفُ في الصحافةِ وتاريخِها وفنونِها كُتبًا كثيرةً . ويُذيعُ في مَوْضُوعاتِها المحاضراتِ العديدةَ في دورِ الإذاعاتِ المُختلفةِ ، ويُدَرِّسُ لطلّابِ الجامعةِ تلكَ المادةَ بإخلاصٍ وأمانة . كان دأبَ الحديثِ عن الصحافةِ مع وَلَدَيْهِ كمالٍ وعِصام . لا تفوتُه مناسبةٌ إلا اتخذَها سببًا ليَقُصّ عليهما إحدى الحكاياتِ المسلّيةِ التي تشوقُهما إلى المَعرفةِ المُتّصلةِ بعملِهِ وعلمِه وتصرفُهما عن الشارعِ وما يَكثُرُ فيه من تصرُّفاتٍ قد تغرِسُ في نفوسِ النشءِ سيِّءَ العاداتِ وقبيحَ الخصالِ .

عاد الدكتور إسماعيلُ من معهدِ الصحافةِ ذاتَ يومٍ ، فوجد

زَوْجَته في لهفةٍ وشدّةِ انتظارٍ لعودته ، إذ إنَّ ولدَيهما كمالاً وعصامًا قد وجَّها إليها عِدَّةَ أسئلةٍ عن الجريدة ، وهي لا تعرفُ من المعلوماتِ عن الصحفِ والجرائدِ ما تستطيعُ الإجابةَ بهِ عن هذا السَّيلِ من الأسئلة . . . فلم تكدْ ترى وجه زوجها العزيز حتى أقبلتْ عليهِ مسرعةً وهي تقول . أدرِكْني يا عزيزي . .

فضحك إسماعيلُ . ونادى ولدَيْه . وقال لهما في حنانٍ وعطف :

— إجلسا أمامي . ولا تُكثِرا من الأسئلةِ . وسوف أذكرُ لكما كلَّ شيء عن الجريدة . . .

وفرح كمالٌ وعصامٌ بعودةِ الوالد . ووعداه بأن يُنصِتا إليه . ولا يَقطَعا عليه حديثَه بالأسئلةِ الكثيرةِ التي تُعطّلُه عن إتمامِ قِصّةِ الجريدة .

وسُرَّ الدكتور إسماعيل بذلكَ الوعدِ الصّادقِ منهما . وأنشأ يقول :

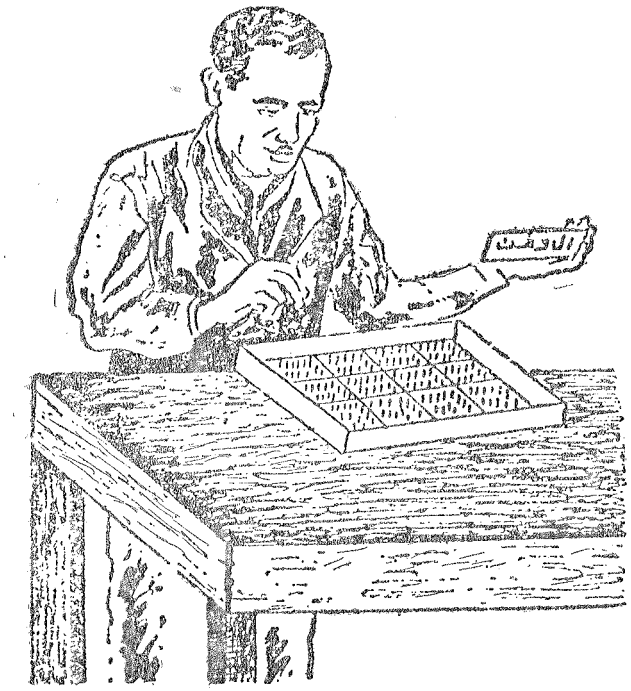

طريقةُ صفِّ الحُروفِ

وهذه الطريقةُ قديمةٌ ، ولكنَّ الكثيرينَ من الناس يُفضلونَها عن صفِّ الحروفِ بالآلاتِ ، وخاصَّةً إذا كان المطبوعُ لا تزيدُ نُسَخهُ عن عدَّةِ آلاف .

— ذكرتُ لكما أنَّ أهمَّ شيءٍ فى الجريدةِ ، الأخبارُ ، وأنَّ الناسَ اهتموا بالأخبارِ قبل أنْ يعرِفوا الجريدةَ . وأن بعضَهم تخصَّصَ فى نقلها أو نَسْخها أو طَبْعِها بعد اختراعِ المطبعة .

ثم مَضَتِ الأيامُ ، وزادَ عددُ الذينَ يستطيعون القراءةَ ووَجدَ المخبرونَ أنهم عثروا على (حُرَفاءَ) لهُم فطبعوا صُحفاً صغيرةً من ورقة واحدة فيها كثيرٌ مِنَ الأخبارِ والحوادثِ التى حَدثتْ فى داخلِ بلادهم ، كالمواليدِ والوَفياتِ ، وثوراتِ البراكينِ والحرائقِ ، والزواجِ والطَّلاقِ ، ومعها أخبارٌ من الخارجِ ، وهى الأخبارُ التى عادَ بها المُسافرونَ سَواء عنْ طريقِ البرِّ أو عن طريق البحر .

ولم يستطعْ عصامٌ ، الإبن الأصغرُ ، الصبرَ عن السؤالِ فقال :

— وأين حدثَ هذا ياوالدى العزيز .

— حدث هذا يابنىَّ أولَ الأمرِ فى مُدُنِ إيطاليا ، وبخاصَّةٍ مدينة البُنْدُقيَّة ، وهى ميناءٌ إيطاليٌّ كبيرٌ ، اشتهرت بتجارة

الأخبارِ منذ خمسمائةِ سنة ، لأن الحياةَ الاجتماعيةَ كانت مُزْدَهِرَةً فيها ، وكانتِ السُّفُنُ الكبيرةُ ترسُو كلَّ يوم في مينائها ، ومن هنا كان المخبرونَ يحصُلون على أخبارِهم من العائدينَ إلى البلادِ ، ثم يطبعونَها ويبيعونها .

وعلى إثرِ انتشارِ المطبعةِ في سائرِ بلادِ أوروبا ، وُجِدَ ناسٌ تخصَّصُوا في جمعِ الأخبارِ وصياغتها وطبعِها ، غيرَ أنَّ هذه الأوراقَ الخبريةَ لم يكنْ لها موعدُ صُدور ، إذ كانَ أصحابُها يُصدِرُونها كلما تجمَّعتْ لديهم أخبارٌ كافيةٌ ، وكانوا يذهبون بأنفسِهم إلى السَّاحاتِ الكبيرهِ ويَعرِضونها على النَّاسِ ويبيعُونَها لهم .

وشعرَ الدكتورُ إسماعيلُ أن ولدَيهِ يتطلَّعانِ إلى مزيدٍ من التَّفاصيلِ التي تصِلُ بهم إلى معرفةِ كلِّ شيءٍ عن الجريدةِ حتى بلغتِ الحالُ إلى ظهورِ الجرائدِ بالصورةِ التي يُشاهدونها اليوم ، فاستأنفَ حديثه قائلاً :

— وتطوَّرتِ الأخبارُ المنشورةُ في هذه الأوراقِ ، فتناولَ

بعضُها نقداً لرجالِ الكنيسةِ والحكومةِ ، أدَّى إلى غضبِ هؤلاء الرجال ، فاضطهَدُوا أصحابَها وقبضُوا على كلٍّ من كتبَها أو تابَعَها ، وكان بعضُ رجالِ الدِّينِ والإقطاعيِّين قُساةً جداً في معاملةِ أصحابِ الأوراقِ الخبريةِ ، إلى حدِّ أنهم قطعوا أيديَهُم وألسِنَتهم ، وشنقُوهم ، وعلَّقوا جُثثَهم في الشوارعِ الكبيرةِ .

ولم تقضِ هذه القسوةُ على القائمينَ بأمرِ هذه الأوراقِ الخبريةِ ، بل شجَّعتْهم على المُضيِّ في رسالتهم ، فنظَّمُوا صدورَ هذه النشراتِ ، مرَّةً كلَّ أسبوع ، وأخذَ الناسُ ينتظرون صدورَها في مواعيدِها المقرَّرةِ ، وبذلك عرفَ الناسُ في أوروبا المجلةَ الأسبوعيَّةَ مُنذُ نحو ثلاثمائة سنة :

ووجه كمالٌ سؤالاً لوالدِه يقول :

— ومتى وُجِدَتْ في بلادِنا المجلةُ الأسبوعية ؟

— سأحدِّثُكما يا صغيريَّ العزيزين عن المجلاتِ والجرائدِ في بلادِنا بعدما نفرغُ من الحديثِ عن نشأةِ الجريدةِ في أوروبا .

لقد عِلِمْتُما أنّ المجلةَ سبقتِ الجريدةَ فى الوُجودِ ، ولم تَكُنِ المجلةُ فى ذلكَ الزمانِ تُشبهُ مجلاتنا اليوم ، بل كانت مكوّنةً من صفحةٍ مطبوعةٍ أوصفحتَيْنِ أو أربعِ صفحاتٍ صغيرةٍ ، كما لمْ تَكُنْ فيها صُورٌ عاديّةٌ ولا صُوَرٌ مُلوّنةٌ ، ولكنها تطورتْ فى مَدَى ثلاثمائة سنة حتى بلغتْ هذا المُستوى الذى تَريانه فى المجلاتِ الأسبوعيةِ عندنا ، مثل مجلة سمير أوالسندباد لمن كان فى سِنّكما من الأطفالِ ، أوآخر ساعة والمصور وسواها من المجلاتِ التى تَصلُحُ للكبار .

وقد استمرتِ المجلةُ أكثرَ من مائةٍ وخمسينَ سنة تصدُرُ هنا وهناكَ مرة فى الأسبوع ، أما الجريدةُ التى تصدرُ كلَّ يوم فإن أوروبا لم تَعرِفْها إلا مُنذ مائتىْ سنة فقط .

وهنا قال عصام :

— ولماذا تأخّرَ صُدورُ الجريدةِ اليوميةِ حتى هذه المدةِ يا والدى العزيزَ ؟

وسُرَّ الوالدُ من فِطْنَةِ ولدِهِ ونَجابَتِه ، ووجدَ فى سؤاله دليلاً على يَقَظَتِهِ فقال :

— عرفْنا أن أهمَّ ما فى الجريدةِ هو الخبرُ ، وكان الحصولُ على الأخبارِ والحوادثِ فى ذاك الزمانِ مُتعذِّراً إلا فى المدينةِ التى تَصدُرُ فيها الأوراقُ الخبريةُ أو المجلةُ ، فلم يكن هناكَ مَسَرّاتٌ أو بَرْقِيّاتٌ أو سيّاراتٌ أو مطاراتٌ أو إذاعاتٌ ، حتى يُمكِنَ نقلُ الأخبارِ باستخدامِها أو عن طريقِها ، فإنها كلها مخترعاتٌ حديثةٌ ، وكانت بعضُ الأخبارِ تصلُ من إنجلترا إلى ألمانيا فى خمسةِ أشهرٍ ، بينما يُمكنُ نقلُها اليومَ من أمريكا إلى الهندِ فى دقيقةٍ عن طريق المسرّةِ أو المِذْياعِ أو البَرْقِ .

وحين صدرتِ الجريدةُ مُنذُ مائتىْ سنةٍ تقريباً ، كانتْ معظمُ الأخبارِ فيها مَحَلّيّةً ، أى أخباراً تتصلُ بالمدينةِ التى تَصدُرُ فيها ، أو أخباراً يَحمِلُها إليها من المُدُنِ القريبةِ فارسٌ على جَواد ، وكان بعضُ أصحابِ الجرائدِ يستعملونَ الحمامَ الزّاجلَ فى نقلِ

الأخبارِ من الأمكنةِ البعيدة ، وكانت الجريدةُ غاليةَ الثمنِ لأن تكاليفَها كانت باهظةً لما تستلزمُه من تحريرٍ وجمعٍ وطبعٍ .

وقلما كانت جريدةٌ من الجرائدِ تستطيعُ الصدورَ مدةً طويلةً .

وقال كمال :

— تفضلتَ يا والدى وذكرتَ لنا مرةً أن بعضَ الجرائدِ عمرُها الآن أكثر من مائةِ سنة ، فكيف استطاعتْ هذه الجرائدُ أن تصدرَ إلى الآن ؟

— شىءٌ هامٌ هو الذى يساعدُ على بقاءِ الصحف .

— وما هذا الشىءُ الهام ؟

— أن تكثرَ فيها الإعلاناتُ التى يدفعُ من أجلها المُعلِنون أجراً كبيرا ، فبهذه الأجورِ يؤدّى أصحابُ الجريدةِ جزءاً كبيراً من نفقاتِها ، ثم يستكملون سائرَ النفقاتِ مما يربحونه من بيعِ الجريدةِ للناسِ ، وهذا ما تشاهدونه فى المجلاتِ والجرائدِ

العربيةِ ، فإن المساحاتِ المخصصةَ لنشرِ الإعلاناتِ لا تقلُّ عن ربعِ مساحةِ الجريدةِ أو المجلة .

ولا تظنّا أن نجاحَ الجريدةِ واستمرارَ بقائِها ، وتقدمها على غيرِها من الجرائد ، أمرٌ يرجعُ إلى كثرةِ الإعلاناتِ فيها .

لا يا صغيرىّ العزيزين ، فإن الجريدةَ رسالةٌ ، وهى معلّمٌ وهادٍ ، ويجبُ أن تلتزمَ الجريدةُ الصدقَ فيما تنشر كما يجب أن تملأ صفحاتِها بكل ما يعودُ بالخيرِ على من يقرؤها ، بل يجبُ أن يخلصَ أصحابُها فى تحريرِها وإعدادِها وإخراجِها ، حتى تشوّقَ الناسَ إليها ، وترغّبَهم فى قراءتِها وإلا انصرفوا عنها ، وسخطوا عليها وكفّوا عن شرائها ، وفى هذا انتهاء لحياتها .

استمع الصغيران إلى والدِهما فى إقبالٍ وإصغاء ، إلى أن حانتْ ساعةُ النومِ فصحبتْهما الوالدةُ إلى حجرتِهما وودّعتْهما مذكّرةً إياهما بأنهما مطالبانِ بالذهابِ إلى المدرسةِ فى الصباحِ الباكرِ ، فشكرا والديْهما ، وقاما إلى سريريْهما سعيديْن بما سمعا

من أحاديث ومناقشات ، أفادا منها معلوماتٍ قيمةً تكشفُ عن مدى ما بُذِلَ من جُهدٍ فى سبيل إيجادِ الصُّحُفِ ونشرِها ، وما عاناهُ المُفكِّرونَ من مشقّاتٍ ومُضايقاتٍ حتى وصلوا بها إلى أحدَثِ ما عُرِف فى عصرِنا هذا ، من أساليب الإعدادِ والإخراجِ والتوزيعِ .

ولم يكدِ الصبيانِ يستلقيانِ على فِراشِهما حتى استغرقَهما نومٌ هادئٌ يتعرضانِ فيه أحلاماً لذيذةً وأطيافاً جميلةً تتراءَى لهما فى منامِهما الهادىءِ مواكبُ الصُّحُفِ ذات الأنواعِ الكثيرةِ ، والأحجامِ العديدة والفنونِ المختلفةِ ، فهذه صحفٌ يوميةٌ تنشُرُ الجديدَ من أخبارِ العالمِ وقد حملَها إليها البرقُ والمذياعُ ، وتعرضُ الطَّريفَ من حوادثِ الدُّنيا ، وغرائبِ الابتكاراتِ ، وعجائبِ المُخترعاتِ ، وقد نقلتْها عن الصُّحُفِ الأجنبيةِ أو المؤلفاتِ الحديثةِ ، وتُعنى بالشئونِ العامة التى تشغلُ أذهانَ الناسِ ، وتستهوِى نفوسَهم فى عصرِنا الحاضرِ ، ولا سيَّما

مايتصلُ منها بالألعابِ الرياضيةِ ، والمُبارياتِ الدوليةِ ، وما يُستحدَثُ من الأزياءِ والملابسِ للنساءِ والرجالِ ، والكبارِ والصغارِ ، فتفردُ معظمُ الصحفِ باباً لكلِ لونٍ من هذه الشئونِ ، وتحدِّدُ له مكاناً ظاهراً فى إحدى صفحاتِها المُتعدِّدةِ .

وتلك مجلاتٌ أسبوعيَّةٌ أو شهريةٌ تخصَّصَ كلٌّ منها لناحية من نواحي الإنتاجِ الفكرِى ، أو انفردَ بخدمةِ جانبٍ من جوانبِ العملِ الحيوىِ ، بعضُها علمىٌّ أو أدبىٌّ أو فنىٌّ ، وبعضُها الآخرُ رياضىٌّ أو نسوىٌّ أو قانونىٌّ أو سياسىٌّ ، ومنها ما يتناولُ فنونَ الحرْبِ وأسلحتَها ، وتطورَ الطيرانِ وأحوالَه وبعضُها يقدِّمُ للأطفالِ القصصَ المُسلِّيةَ ، والحكاياتِ النافعةَ ، والنوادرَ الطريفةَ التى تُفرِحُ قلوبَهم ، وتجذِبُ أنفُسَهم إلى حبِّ القراءةِ وتعوُّدِ المُطالعةِ ، فيكسبونَ من ذلك لذَّةً ذِهنيَّةً ، وفائدةً علميَّةً ، وشغلاً لأوقاتِ فراغِهم فيما ينفعُهم ويعودُ عليهم بالخيرِ فى مستقبلِ حياتِهم ، ويُؤهِّلُهم إلى خدمةِ وطنِهم الذى

ينتظرهم ليرفعوا شأنه ويعلوا منزلته بين الأوطان فى مقبل الأيام والأعوام .

لقد كان نومهما يقظة لعقليهما وخيالهما الذى سرح بهما فى عالم الصحافة الرائع البديع كما كان صحوهما فى الصباح الباكر مظهراً لنشاطهما ، وإقبالهما على والدهما بالسلام والتحية والشكر ، إذ أتاح لهما سعادة روحية فى ليلتهما ، بما حكى لهما من قصة الجريدة فى نهارهما ، فكان فضله عليهما مضاعفاً ، آناء الليل وأطراف النهار .

أدوات الجريدة

أقبل كمال وعصام على والدهما الدكتور إسماعيل ، يذكران له أنهما قصّا على صحابهما فى المدرسة ما تفضّل به عليهما من ذكر قصة الجريدة ، وأن بعض هؤلاء الصحاب سألهما عن جرائد اليوم : كيف تصدر ؟ ومن أين يأتون بورقها ؟ وكيف يحصلون على أخبارها ؟ وكيف تطبع ؟ ثم ذكرا له أنهما عجزا عن الإجابة على هذه الأسئلة .

وأعجب الوالد بذكاء صحاب ولديه ، فإن هذه الأسئلة تنبىء عن وعى مبكر ، وتكشف عن ملكات فى أبناء الجيل الجديد ، وسرّه أن يذكر ولداه أسئلة صحابهما التى تعذر عليهما الإجابة عليها ، ووجدها فرصة مواتية ليستكمل فيها كل ما يتصل بقصة الجريدة ، وهى من أروع القصص التى عرفتها الإنسانية .

قال لولدَيهِ :

— إن الجريدةَ التى تريانِها اليومَ فى يدِ النَّاسِ ، يقفُ خَلفَها مئاتٌ من العاملينَ الذين يُعدُّونها لنا حتى نراها على ما هيَ عليهِ من الدِّقةِ والجمال ، والأدواتُ التى تُنتج لنا هذه الجريدةَ كثيرةٌ ، وأولُ هذه الأدواتِ الورق .

وقصةُ الورقِ قديمةٌ ، وقد عرفَ صِناعتَها الصِّينيُّونَ منذ ألفٍ وثمانمائة سنة ، وكان المفروضُ أن تَبقى هذه الصناعةُ سِرًّا لا يعرفُها أحدٌ ، لولا أجدادُنا العرب الذين نشَروا هـــذه الصناعةَ وأعلنوا عنها .

وسأل عصام والدَه كيف نشَرَ أجدادُنا صِناعةَ الورقِ وهم لم يخترِعُوه ؟

فقال الوالدُ :

— لا تستعجلْ يا عصامُ . ودعنى أذكر لك كلَّ شيء .

لقد جاء الإسلامُ برسالةِ الحق ، وأخذ المسلمونَ ينشرُونَ دينَ

جوتنبرج مخترعُ المطبعةِ

اللهِ في بقاعِ الأرضِ ، فوصلوا منذ ألفٍ ومائتي سنة إلى الصِّين ، وهناك عرفوا قِصةَ الورقِ ، ووجدوا له مَصْنعاً في مدينه صينية تسمى « سَمَرْقَنْدْ » فتعلموا صِناعتَهُ ونقلوها إلى بلادِنا ، وأصبحَ العربُ وحدَهم يَعرفونَ هذه الصناعةَ ، غير أن دينهم السَّمْحَ يدعو إلى نشرِ المعرفةِ بَيْنَ الناسِ ، لذلك لم يَبْخلوا بتعليم أوروبا هذه الصناعةَ ، ومضتِ الأيامُ ، فإذا هـــذه الصناعةُ الشَّرقيَّةُ العربيَّةُ تصبحُ صناعةً غربية ، وإذا نحنُ نَستوردُ اليومَ ورقَ الصُّحُفِ من بلادٍ أجنبية !

وسأل كمالٌ والدَه :

— كيفَ كُنَّا ننشرُ صناعتَهُ ، ثم صِرْنا نَسْتَوْرِدُه من الخارجِ ونحنُ أصحابُهُ مُنذُ قديم ؟

— لا تَقْنَطْ يا بُنَيَّ ، فإنَّنا قد بَنَيْنَا المصانِعَ لإنتاجِ الورق ، ونُنتجُ اليومَ بعضَ أصنافِه ، ولن يَمْضِيَ وقتٌ طويلٌ حتَّى نُنتجَ أيضاً ورقَ الصُّحفِ ، وسوف نَقرأُ صُحُفَنَا في مصر

وفي سائرِ بلادِ الوطنِ العربيِّ الكبيرِ مطبوعةً على ورقٍ مَصْنُوعٍ بأيدٍ عربية .

ونقلَ الوالدُ الحديثَ إلى شيءٍ آخر فقال :

— لقد سألكما صِحابُكما كيف تَصْدُرُ الجريدةُ ؟ وإنَّ لِذلك جِهازاً يتكوَّنُ من المُخْبِرينَ الذينَ يأتونَ بالأخبارِ ، والمحررينَ الذين يكتُبونَ المقالاتِ ، والمُصَوِّرينَ الذينَ يُصوِّرُونَ الحوادِثَ ، والرسَّامينَ الذين يَرْسِمونَ أو يُساعِدُونَ في رسْمِ الإعْلاناتِ ، والفنَّانينَ الذينَ يَضَعُونَ الأفكارَ للرَّسْمِ أو التصْويرِ أو إخْراجِ صَفحاتِ الجريدةِ ، ثم رؤساءِ التحريرِ الذينَ يُراجعونَ هذا كلَّهُ ، ولا يَجوزُ أن يُنشرَ شيءٌ في الجريدةِ إلا إذا وافقَ على نَشْرِهِ رئيسُ التحريرِ ، فهو المَسْئُولُ عن الجريدةِ وما يُنْشَرُ فيها .

وقال عصامٌ وهو شاكرٌ لوالده :

— إن من بين الأخبار أخباراً عن البلادِ الأخرى ، فكيف تَحصلُ عليها الجريدة ؟

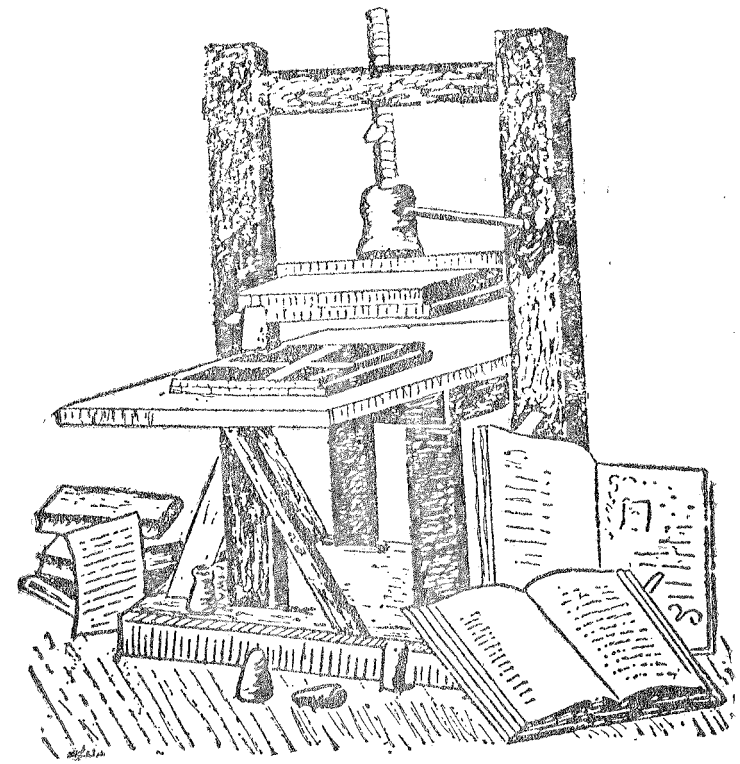

مطبعة جوتنبرج

أوّل مطبعةٍ عرفها التاريخ

فأجابَ الوالدُ

لكلِّ جريدَةٍ مُندوبُونَ يُقيمونَ فى البلادِ العالَمِيَّةِ الهامَّةِ ، وعلى هؤلاءِ أن يَجمعُوا الأخبارَ والحوادثَ ويُرسلوهَا إلى جريدَتِهِمْ ، بالطَّائِرةِ أو بالمذْياعِ أو بالبَرْقِ ، فتصل إليها فى أوقاتٍ مُناسبةٍ ، وهؤلاء المندوبُونَ يُسمَّوْنَ « بالمُراسِلين » .

والجرائدُ الكبيرةُ لا تقتصرُ على « مُراسِليها » فقط فى الحُصُولِ على الأخبارِ ، بل تَشْتَرِكُ فيما يُسَمُّونَهُ « وكالاتِ الأنباء » وهذهِ الوكالاتُ تكونُ عادةً شَرِكاتٍ كبيرةً ، فيها محررونَ ولها مُراسلونَ عَدِيدُونَ يُوالونَها بالأنباءِ والحوادثِ والأخبارِ من جميعِ جهاتِ العالَمِ ، مثل وَكالَةِ (أنباءِ الشرقِ الأوْسَط) عندَنا ، ووكالة (رُويتَرْ) فى إنجلترا ، وغيرها كثير فى الولاياتِ المُتَّحِدَةِ ، وفرنسا ، وسائرِ البلادِ المتحضرةِ ، وهذه الوكالاتُ تأتى إليها الأخبارُ من مُراسليها من بقاعِ الأرضِ المختلفةِ ، فَتُراجِعُها ، وتعيدُ تحريرَها ، وتُرْسِلُها إلى مُشتركيها فى كل مكان .

وكما أن للأخبارِ (وكالات) كذلك تُوجَدَ وكالاتٌ للصُّوَرِ ، تتْبعُ نفسَ الطريقةِ التي تتْبعُها وكالاتُ الأنباءِ ، فلها مُصوِّرونَ في كل مكانٍ من الدُّنْيا ، يُرسلونَ إليها الصورَ ، وهي تقومُ بتوزيعِها على الجرائدِ العالميةِ الكبيرةِ المُشْتَرِكَةِ فيها بعد أن تُسجِّلَ على ظهرِ كلِّ صورةٍ بياناً عن الصورةِ وموضوعِها .

وتتلقَّى الجرائدُ هذه الأنباءَ وتلكَ الصورَ ، وهي حرَّةٌ تَنشُرُ ما تشاء منها ، وتطوِي ما تشاء ، فقد يكونُ في هذهِ الأخبارِ أو في هذه الصورِ ما يَتعارضُ مع مصلحةِ الوطنِ الذي تَصدُرُ فيه الجريدةُ ، ولا يجوزُ أن تُنْشَرَ فيه هذه الصُّوَرُ والأنباءُ رِعايةً للصالحِ العام .

ورأى عصامٌ إقبالَ والدِهِ عليه ، ونشاطَه إلى الإجابةِ عما يُوجَّهُ إليهِ من أسئلة . فسمحَ لنفسهِ أن يُتبِع سؤالهُ السابقَ بسؤال آخر فقال :

— وهل تربحُ هذه (الوكالات) يا والدِي مِثلَما تربحُ الصحفُ ؟

فأجاب الوالد :

— نعَمْ ، إنَّها تربحُ أكثرَ مما تربحُ الصحفُ ، ذلك لأن تكاليفَ جمعِ الصُّوَرِ أو الأخبارِ وتحريرِ موضوعِها وإرسالِها للمُشْتركينَ من أصحابِ الجرائدِ في أنحاءِ العالَمِ ، يُقابِلُه ثمنٌ مُرْبِحٌ يُدْفَعُ لهذهِ الصُّوَرِ أو الأخبارِ ، وقد يَبلغُ عددُ الجرائدِ المشتركةِ في هذه الوكالاتِ أكثرَ من عشرةِ آلاف جريدة ، وفي الولايات المتحدةِ وحدَها ألفا جريدةٍ ، لابُدَّ أن تشتركَ في هذه الوكالاتِ التي تُعتبرُ عُنصراً أساسياً في إصدارِ المجلاَّتِ والجرائدِ ، والأمرُ على العكسِ في شأنِ إعدادِ الجريدةِ وتجهيزِها للنَّشرِ ، إذ إنَّ تكاليفَ إصدارِ الجرائدِ باهظة ، لأنَّ الحالَ فيها لا تقتصرُ على التحريرِ أو المُحرِّرينَ أو الموظَّفينَ ، بل هُناكَ تكاليفُ أُخرَى ،

مثلُ ثمنِ الورقِ وأجورِ الطبعِ فضلاً عما يُصرفُ على توزيعِ الجريدةِ فى الداخلِ والخارجِ .

وأطمعتْ هذه الإجابةُ الإبنَ فى سماحةِ الوالدِ ورحابةِ صدرِه فى توجيهِ الأسئلةِ إلى والدِه غيرَ مُحْرَجٍ .

وكيفَ يطبعُون الجرائدَ يا والدِى العزيز ؟

— لقد قرأْتَ (قِصّةَ المطْبَعَةِ) وعرفْتَها منها أن مطبعة الجريدةِ شىءٌ يختلفُ عن سائرِ المطابعِ التى تطبعُ الكُتُبَ والأوراقَ التجارية والكرّاساتِ ، فالمطابعُ العاديةُ تطبعُ فى الساعةِ عِدَّةَ آلافٍ من أىِّ مطْبوع أما مطبعهُ الجريدةِ فتطبعُ من صفحاتِها فى الساعةِ الواحدةِ مئاتِ الألوفِ من النُّسَخِ ، والمطبعةُ العاديةُ تطبعُ ست عشرة صفحة عادية فى أحسن الظروف ، أما مطبعةُ الجريدةِ فتطبعُ من أربع صفحاتٍ كبيرة ، إلى أربعٍ ومِئتينَ صفحة دفعةً واحدة .

ومطابعُ الجرائدِ الكُبْرَى ، تطبعُ الجريدَةَ بعدَّةِ

المطبعةُ فى القرنِ السابع عشر

أَلْوَانٍ ثم تطويها ، وأحيانًا تُسَجِّلُ على كلِّ نُسْخَةٍ رَقْمَهَا .

إن طَبْعَ الجريدةِ شيءٌ مُمْتِعٌ يا ولدىَّ ، وسوفَ أزورُ بِكُمَا إحْدَى جرائدِنا لتريَا مطابِعَهَا فى أثناء العملِ .

وحيَّا كمالٌ والدَه ثم قال :

— ذكرت لنا يا والدى الحبيب (قصّةَ الجريدة) منذ نشأتها إلى اليوم ، وضربْتَ لنا الأمثلةَ بجرائدِ أوروبّا وأمريكا ، ولكنكَ لم تذكرْ لنا متى عرفتْ بلادُنا فى الوطنِ العربىِّ الجريدة ؟

— الواقعُ يا ولدىَّ العزيزين — أنَّ الزمنَ تأخَّرَ بنا فى معرفةِ الجرائدِ والمجلات ، فقد صدرتْ أولُ جريدةٍ فى مصرَ سنة ١٧٩٨ ، حين جاء إلى بلادِنا الجنرالُ بونابرت على رأس الحملةِ الفرنسيةِ المعتديةِ ، غير أن الجريدتينِ اللتينِ نشرَهما باللغةِ الفرنسيّةِ فى بلادِنا لم تُعمِّرا طويلاً ، لأن حملتَه العسكريّةَ ،

واحتلالَهُ البغيضَ لم يَطُلْ عهدُنا بِهِما نتيجةَ الكفاحِ الذى بَذَلَهُ أجدادُنا فى تحطيمِ حملتهِ والقضاءِ على وجودِهِ بيننا .

وبعدَ ذلكَ بقليلٍ ، ظهرتِ (الوقائعُ المصريّةُ) وهى أقدمُ جريدةٍ عربيّةٍ فى وطنِنا العربىِّ الكبيرِ ، ثم أخذتِ الجرائدُ والمجلاتُ تنتشرُ فى مصرَ ، وكانت صُحُفًا وطنيةً مُخلِصةً حاربتْ الاحتلالَ ما استطاعتْ ، وتولّى تحريرَها عظماء من المصريينَ الذين دافعوا عن حريّتِنا ، وتحمّلوا فى سبيلِ ذلكَ الشقاءَ والسِّجْنَ والنَّفْىَ ، وماتوا فى سبيل مصرَ واستقلالِها وكان فى مقدمةِ هؤلاء العظماءِ مصطفى كامل الزعيمُ الوطنىُّ الكبيرُ الذى أنشأ جريدةَ « اللِّواء » وهى أعظمُ صحيفةٍ وطنيةٍ فى زمانِهِ ، وكان هذا الزعيمُ يكتبُ فيها هو وأنصارُه كلَّ يومٍ المقالاتِ الوطنيةَ الملتهبةَ ، وأثّر هذا الجهادُ العميقُ فى صحّتِهِ حتى ماتَ وهو فى ريعانِ الشّبابِ فى نحوِ الخامسةِ والثلاثين من العمرِ .

تأثّر كمالٌ وعصامٌ بسيرةِ هذا الزعيمِ الكبيرِ ، والصَّحفيِّ الخطيرِ مصطفى كامل ، الذى ضحّى بروحِه وجسدِه فى سبيلِ بلادِه ، والذى ضربَ أحسنَ الأمثلةِ لسائرِ أصحابِ الجرائدِ ومحرِّريها .

وتطلّعَ كمالٌ مرّةً أخرى إلى والدِه سائلاً :

— وما حالُ الجرائدِ والمجلاتِ فى سائرِ بلادِ الوطنِ العربى ؟

— كانت بلادُنا أولَ بلادٍ فى الشرقِ كلِّه عرفتِ المجلةَ ثم الجريدةَ ، وحتى تركيا التى كانت تحتلُّ البلادَ العربيةَ كلَّها عرفتِ المجلةَ والجريدةَ بعدَنا ، لأن السّلاطينَ كرِهُوا المطبعةَ ، واعتبرَها رجالُ الدّينِ عندَهم عملاً من أعمالِ الشياطين ، لذلكَ تأخّرَ صُدورُ الجريدةِ فى تركيا سنواتٍ طويلة .

أما البلدُ العربىُّ الثّانى الذى رحّبَ بالجريدةِ ، وفهِمَ قدْرَها فى حياةِ الأممِ والشّعُوبِ ، فكانَ لُبنان ، وقد ازدهرَتْ فيه الجرائدُ جيلاً بعدَ جيل ، وظهرَ من بين أبنائهِ صحفيونَ ممتازُون

وهكذا بدأتِ الجرائدُ تعرفُ طريقَها إلى جميعِ بلادِ الوطنِ العربىِ ، حتى لم يعُدْ يخلُو منها اليومَ بلدٌ عربىٌّ ، فهىَ بالنسبةِ لحضارةِ الناسِ من أهمِ وسائلِ هذه الحضارةِ ، وهى صاحبةُ رسالةٍ اجتماعيةٍ ، لذا لا يُمكِنُ أنْ يعيشَ بغيرِها مجتمعٌ متحضّرٌ ، كما لا يُمكنُ أن يستغنىَ عنها حاكمٌ نابهٌ أو محكومٌ متحرّرٌ .

ثم نظر الدكتورُ إسماعيلُ إلى ولدَيه وقال :

— هذا ملخّصُ قصّةِ الجريدةِ فى الغرْبِ والشّرقِ ، فهلْ لكما سؤالٌ بعدَ ذلكَ الحديثِ الطويل ؟

فلم يجد كمالٌ وعصامٌ ما يُوجِبُ السؤالَ بل شكرا والدَهما على هذه المعلوماتِ الدقيقةِ المفيدةِ عن الجريدةِ وتاريخِها ، ودعا كلاهُما له بطولِ العُمرِ والتّوفيقِ ، حتّى يظلَّ الناسُ يغترِفُونَ من بحْرِ علْمِهِ الغزيرِ بذلكَ الفنِّ الصحفىِّ الجليل .

رقم الإيداع بدار الكتب ٣١٤٨ لسنة ١٩٧٣

مطابع سجل العرب